

من كتاب "وجع الكنيسة" (٢): حكمة الكنيسة

القديس نيكولا فيليميروفيتش

نقلته إلى العربية أسرة التراث الأرثوذكسي

الفصل الأول

حكمة الكنيسة (صوفيا)

يُطلق على أكثر المقامات جلالاً في الكنائس الشرقية اسم الأيا صوفيا (الحكمة المقدسة)، في حين أن أروع المعابد في الكنائس الغربية تسمى على اسم القديس بطرس، أو القديس بولس، أو القديس يوحنا، إلخ. وكما أن لكل شعرة على رؤوسنا أو كل خط في راحة يدنا أهمية معينة، كذلك تكريس الكنيسة له أهمية مؤكدة لا شك فيها. وهذه الأهمية نوعيّة بحسب معتقد كل من الشرق والغرب. فالمسيحية الغربية، التي نمت على أرض الفردانية الفتية، فضلت شخصية هذا الرسول أو ذاك وكرّست له أفضل معابدها. أما الشرق القديم، إذ قد سئم الطموحات الفردية، وتعب من الرجال العظماء، وجلده سراب العظمة البشرية، كان متعطشاً لشيء أسمى وأكثر صلابة من أي شخصية بشرية. ولما كانت عبادة الأشخاص العظماء هي حكمة هذا العالم، بسط الشرق يديه نحو مثال فوق الإنسان، نحو الحكمة المقدسة.

إنها حقيقة نفسية أن يرى الشباب مثاله الأعلى في العظمة الشخصية وتقدم العمر في القداسة. لقد طلب الشرق شيئاً أكثر أبدية من بطرس أو بولس أو يوحنا. هناك حكمة وهناك حكمة مقدسة. كانت الحكمة الفلسفية أو الشخصية موجودة منذ بداية البشرية، لكن الحكمة المقدسة دخلت العالم بيسوع المسيح. كان المسيح تجسيداً لحكمة الله، تجسداً للحكمة المقدسة. هذه الحكمة تقوم فوق كل حكمة بشرية وتحببها وتنيرها. تجمع الحكمة المقدسة الحكمة الأساسية لبطرس وبولس ويوحنا وأي رسول أو نبي آخر أو أي شيء أو مخلوق آخر، كما يتشكل المحيط من مياه أنهار عديدة.

في أحلك أوقات التنافر أو عدم اليقين أو المعاناة، لم يعتمد الشرق المسيحي كثيراً على الرسل العظام، سواء بطرس أو بولس أو يوحنا، بل نظر إلى ما وراء الزمان والمكان إلى المسيح الأبدي، كلمة الله، وطلب النور. لقد تطلع إلى الأبدية من خلال هذه الكنيسة في القسطنطينية، الأيا صوفيا، كرمز مقدس شامل ومصالح للجميع. عندما صار بطرس أو بولس أو يوحنا أو أي رسول أو نبي آخر الأساس الذي اختلف حوله المؤمنون، طلبوا في الحكمة المقدسة الملجأ والشفاء من انحيازهم الفكري وسوء نيتهم. ومع ذلك، حتى لو كان للحكمة المقدسة رمزاً مرئياً رائعاً فقط في الشرق، إلا إن الحكمة المقدسة ليست أقل من أساس ومضمون وهدف الكنيسة الغربية كما الكنيسة الشرقية، نعم الكنيسة الجامعة

الواحدة [١]. لأن المسيحية لم تكن موجهة للشرق وحده ولا للغرب وحده، بل للعالم كله. وماذا تعني كلمة جامعة التي يُساء استخدامها كثيراً غير الشاملة؟ حتى هذا هو أيضاً معنى الحكمة الإلهية كما كشفت عنها المسيحية منذ البداية.

سأحاول إظهار حكمة الكنيسة الشاملة هذه، التي تجلت منذ البداية، أولاً في مؤسس الكنيسة، وثانياً في تنظيم الكنيسة، وثالثاً في وجهة الكنيسة.

يتبع

[١] معروف أن القديس نيقولا فيليميوفيتش كان في البداية متحمساً للحركة المسكونية، لكنه بعد انخراطه فيها تراجع وكتب كلاماً قاسياً عنها - المترجم